# المعنى التاريخي لانهيار الربيع العربي

**يوسف مكي**

الربيع العربي، هو تعبير استخدمه الإعلام الغربي، للدلالة على الأحداث التي أخذت مكانها في عدد من الأقطار العربية، إثر حادثة البوعزيزي في تونس، الذي أضرم النار في جسده. ويصادف هذا اليوم الذكرى الثالثة على بدء اندلاع الحركة الاحتجاجية في تونس الخضراء، لتنتقل بسرعة إلى مصر وليبيا وسوريا، وبشكل أقل حدة في عدد آخر من البلدان العربية.

والدلالة الغربية للمعنى، تشير إلى تشابه ما جرى بالوطن العربي، بالأحداث التي عمّت أوروبا الشرقية، مع بداية التسعينات من القرن المنصرم، حيث سقطت الكتلة الاشتراكية، وسقط معها الإتحاد السوفييتي. وقد ساد في حينه توصيف ما جرى بربيع أوروبا، مع أن الفارق كبير بين ما جرى في أوروبا الشرقية وبين ما جرى في الوطن العربي.

قراءة ما جرى في أوروبا الشرقية، تؤكد جملة من الحقائق، أهمها أن التطور التاريخي في تلك البلدان يفرض تحولا لا مناص من تحققه نحو الانتقال من الأنظمة الشمولية، إلى النظام الديمقراطي على النمط السائد في الغرب. فالتكامل الاقتصادي الذي تحقق بين بلدان أوروبا الشرقية، بقيادة الاتحاد السوفييتي، القطب الآخر، في معادلة التوازن الدولي، أدى إلى ارتقاء عملية التصنيع في تلك البلدان، وأسهم في خلق هياكل اجتماعية، ما كان لها أن تواصل القبول بالنظام الشمولي، الذي فرض عليها. فكان التحوّل إلى قيم الليبرالية، قد جاء باتجاه موضوعي وصحيح.

ولأن التوجه كان من النظام الشمولي، إلى النظام الديمقراطي، كان مطلبا أساسيا لأغلبية الجمهور في أوروبا الشرقية، تم التحول من غير عنف يستحق الذكر. ولم تجر حوادث قتل للزعماء، باستثناء ما حدث في رومانيا، واقتصر على إعدام الرئيس نيقولاي شاوشيسكو وزوجته. ولا شك أن شيخوخة الإمبراطورية الشيوعية السوفييتية، التي كانت على وشك السقوط، قد حال دون استخدام العنف، لقمع الحراك الشعبي، الذي دشن بإسقاط حائط برلين.

رغم الفراغ السياسي الذي ساد أثناء الحقبة الشمولية، فإن تجانس التشكيلات الاجتماعية، مع مطلب التحول الديمقراطي، قد عجّل في ملء الفراغ بعد التحول نحو الديمقراطية. ولم يكن إعداد المسرح للعملية السياسية الجديدة سوى مسألة وقت قصير.

في البلدان العربية، التي مر عليها «الربيع العربي»، الوضع مختلف جدا عما جرى في أوروبا الشرقية. فالأنظمة التي انطلقت منها الحركات الاحتجاجية، وتحديداً تونس ومصر، هي أنظمة حليفة للغرب. وكان اللافت هو التحول السريع في السياسة الأمريكية من هذه الأحداث، واعترافها بالأوضاع الجديدة، التي أكدت من دون مواربة صواب مقولة، أن ليست هناك صداقات دائمة.

في الوطن العربي، لم يتوافر أي من شروط التحول نحو الدولة المدنية، فلا الهياكل الاجتماعية كانت جاهزة له، ولا الحياة السياسية كانت مهيأة له. فبعد عقود طويلة، من غياب الحريات، نتج عنه تجريف يكاد يكون شاملا للحياة السياسية، لم يكن منتظرا أن يحدث حراك منظم، ينقل الواقع السياسي القائم من الحالة الشمولية إلى الحكم الديمقراطية، والدولة المدنية.

ولذلك فإن من المنطقي ألا يمتلك الشبان اليافعون الذي قادوا الحراك في الميادين بالمدن الرئيسية التي شملها «الربيع العربي»، أي برنامج وتصور لشكل الدولة المرتقبة. فكان أن اتسم الحراك بالعفوية، وردود الأفعال المنفعلة، والتسرع في اتخاذ خطوات الانتقال من النظام السابق، إلى أنظمة جديدة لا تختلف كثيرا عن السابق، ولا تلبي المطالب الأساسية التي حملتها شعارات المحتجين، وعلى رأسها مطلب التنمية والقضاء على الفساد، وتلبية المطالب الأساسية والحياة الحرة الكريمة للمواطنين.

في ظل الفراغ السياسي، فقز الإسلام السياسي، ممثلاً في جماعة الإخوان المسلمين، الذين التحقوا مؤخرا بالحراك الاجتماعي إلى واجهة الأحداث. ولم يكن ذلك مستغربا، فهم وحدهم الذين ظلوا قوة متماسكة، بسبب تكتيكاتهم، وتحالفاتهم الخفية والمعلنة مع أقطاب النظام السابق. وأيضا، بسبب تحكمهم في مؤسسات العمل الخيري والدعوي، وادعاءاتهم المتكررة، بأنهم ليسوا سوى جماعات دعوية، ليس لها مطمع في الحكم.

يضاف إلى ذلك، أن القوى الاجتماعية الحليفة للأنظمة السابقة، قد راكمت خبرات سياسية لعقود عدة، وتمكنت من الهيمنة على المفاصل الاقتصادية، ومطالب التغيير لم تكن موجهة مباشرة نحوها. فرغم أن الحزبين الحاكمين في تونس ومصر، جرى حلهما، لكن ذلك لم يترافق مع قرارات باجتثاث أعضائهما، بل إن هناك من رأى في قوة هذه الطبقة، دعما للاقتصاد المهترئ، وسبيلا للنهوض من جديد بالبلدان التي طالتها الحركة الاحتجاجية. الحل الوحيد، والممكن للحيلولة دون تمكين جماعة الإخوان المسلمين من تسلم السلطة، في تونس ومصر وليبيا، هو إطالة فترة الحكم الانتقالي، لفترة لا تقل عن الخمس سنوات، وخلق مناخات إيجابية فيها لنشوء حركات سياسية قوية، قادرة على التعبير عن مصالح أغلبية الناس، وأيضا تعميم روح المواطنة، ودولة القانون، والتبشير بقيم الحرية والديمقراطية.

إن نشوء حركات سياسية، وتحقيق تحالفات قوية فيما بينها، وعدم الاستعجال في إصدار الدستور، ربما يمكن من خلق وضع جديد، يحقق التكافؤ بين الأحزاب المدنية، والتنظيمات السياسية الأصولية. وفي هذه الحالة، ستكون الأوضاع أفضل بكثير، سواء تمكنت جماعة الإخوان من الوصول إلى السلطة عبر صناديق الاقتراع، أو فشلت في ذلك، وتمكنت الأحزاب المدنية من حصد أغلبية الأصوات. فهناك فرق كبير، بين أن تحتكر الجماعة الشارع السياسي والسلطة، وبين أن تكون في السلطة فقط، وتواجه معارضة سياسية قوية في الشارع، بما يلجم تصرفاتها وسعيها المحموم نحو أخونة الدولة والمجتمع. الدستور هو مشروع توافقي، معبّر عن مختلف مكونات النسيج الاجتماعي، ولا يكفي في اعتماده اللجوء إلى صناديق الانتخابات، وكان بروزه عن طريق الاقتراع، وليس التوافق قد خدم جماعة الإخوان المسلمين. والمفترض ألا تتكرر تجربة ذلك مرة أخرى. ونأمل أن يستفاد من تجربة الاقتراع السابقة. وتبقى نقاط أخرى، في هذه المقاربات والقراءة النقدية للربيع العربي، بحاجة إلى تأصيل وتحليل في قراءة قادمة بإذن الله.

عن «الخليج» الإماراتية

# السوريون... والموت البطيء

**حسن بن سالم**

لم يعد الموت والهلاك بالقصف والقذيفة والرصاص والبارود على يد النظام الأسدي ما يهدد حياة وأرواح السوريين، بل بات الموت والجحيم يجد أكثر من طريق في تهديد حياتهم وسلبهم أرواحهم، يصبح السوريون وهم يتخوفون من مسائهم يعيشون يومهم وهم يتخوفون من غدهم، الجحيم يلاحقهم، والهموم تحاصرهم، في ظل انعدام أي ملامح لمستقبل مطمئن وآمن.

هرب أكثر من مليوني سوري حتى الآن من الغارات والقصف والدمار، بحثا عن ملجأ من النزاع الدامي الذي يمزق بلادهم منذ أكثر من 33 شهرا، إلا أن المأساة تبعتهم أينما حلوا، من لعنة الحرب وذل اللجوء إلى معاناة الشتاء البارد القارس الذي بات يهدد حياتهم، فهم في هذه الأجواء يعانون من كابوس الموت البطيء أو الموت شبه الأكيد، إذ يواجه الأطفال السوريون وعائلاتهم ثالث شتاء بكل ما يحمله من ظروف ومعاناة قاسية وبائسة لا نهاية لها، وكل شتاء يأتي يكون أسوأ من الذي سبقه، نتيجة زيادة أعداد اللاجئين وارتفاع الضغط على الخدمات في الملاجئ، والشح الشديد في المواد الغذائية، وضعف الرعاية الطبية، وندرة وسائل التدفئة والأغطية، وسوء وتردي وضع الخيام في تلك المخيمات.

ففي لبنان وحده يقطن في هذا البلد الصغير، ذي الموارد المحدودة، نحو مليون لاجئ سوري، وهو ما يوازي ربع عدد سكان لبنان، نصفهم من الأطفال، إذ يجد عشرات الآلاف من اللاجئين أنفسهم في مخيمات عشوائية على أراض تغمرها المياه والثلوج، مع بدء فصل الشتاء واشتداد العواصف في خيام بعضها يقتصر سقفه على أكياس «بلاستيكية».

وفي أراض تتحول إلى حقل من الوحل عند أول هطول للمطر، بل وهناك عائلات ليس لديها حتى خيمة تؤويها، وبلغ بهم الحال بأن يكون أقصى هموم كل فرد منهم في الوقت الراهن هو في تأمين عود الثقاب «الوقود»، الذي يشعل به السنة من اللهب، ليستطيع نزع وشاح البرد والشتاء الذي أصبح يهدد بالقضاء على حياة وأرواح الأطفال وكبار السن، حتى الأحذية التي تقيهم البرد والمشي في الوحل، تمت التضحية والرمي بها في المدفأة، لعدم امتلاك بعضهم «المازوت»، لأجل الحصول على التدفئة، وهو ما يصل إلى حد الشعور بالاختناق في تلك الخيام.

يموت الأطفال هناك كما تقول الروائية الأردنية منى الشرافي تيم من شدة البرد، والناس من حولهم أحياء وموتى بمشاعر جليدية لا تدفئها النيران! فمنذ أيام عدة، قضى البرد والشتاء على حياة الطفل الرضيع محمد رعد الذي لم يتجاوز الشهر الثالث من عمره هناك، بعد أن أصيب بالحمى واختناق التنفس، وعجز أهله عن تأمين التدفئة الكافية وإسعافه خلال العاصفة التي ضربت المنطقة، ولم يستطع ناشطو الصليب الأحمر حتى في الوصول في الوقت المناسب، بسبب تراكم الثلوج، لقد لفظ أنفاسه الأخيرة في حضن والدته التي حاولت بكل ما تملك لتستطيع من توفير التدفئة له ولكن من دون جدوى، يحدث ذلك أمام مرأى ومسمع من دول العالم كله، ووسط شعور بالقلق الشديد من المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، بأن الأجواء شديدة البرودة في منطقة البقاع، والملاجئ فيها دون المستوى المطلوب، في هذا الوقت أعلنت العديد من المنظمات الخيرية العربية والغربية تحركها واستنفارها في إغاثة اللاجئين السوريين، ومنها: حملة ليان، وهي حملة خليجية مستقلة معنية بإغاثة اللاجئين السوريين في لبنان، استوحت اسمها من اسم رضيعة سورية، توفيت في شهرها السابع بعد تدهور حالتها الصحية لمعاناتها من مرض قلبي، وعلى رغم قيام والديها بتكلف المصاعب واجتياز المعابر، وصولا إلى الحدود اللبنانية، طلبوا المعونة والنجدة، ولكن لم تصل النجدة إلا ولفظت ليان أنفاسها الأخيرة في ظل عدم وجود عناية طبية وإغاثية للاجئين.

فليان لم تمت بل أحيت حملة خليجية، لأجل تقديم العون والمساعدة للاجئين السوريين في شمال لبنان، ويسهم في دعم هذه الحملة العديد من الإعلاميين والمثقفين والمهتمين بالعمل الخيري من الخليج والعالم العربي، وكل فرد منا بإمكانه الدخول على موقع الحملة على الإنترنت والاطلاع على أنشطتها.

وبإمكان كل أحد أن يتبرع لها عبر الموقع الإلكتروني بأي مبلغ كان ومن أي مكان، وأطلقت أخيرا حملتها بشعار «العطاء هو الدفء.. خبئهم عن البرد القارس»، وهذا أقل ما يمكن أن نسهم به في تخفيف عبء المعاناة عنهم، وتذكر ما قاله الراحل محمود درويش: «وأنتَ تعودُ إلى البيت، بيتك، فكر بغيرك، لا تنس شعب الخيام، وأنت تنام، وتحصي الكواكبَ، فكر بغيرك، ثمّة مَنْ لم يجد حيّزاً للمنام، وأنت تفكر بالآخرين البعيدين، فكر بنفسك، قل: ليتني شمعة في الظلام».

عن صحيفة «الحياة» اللندنية

# المؤقت الدائم.. تصفية القضية دون إعلان

**ياسر الزعاترة**

منذ قرار شارون الانسحاب من قطاع غزة عام 2003، ونحن نكتب عن الحل الانتقالي البعيد المدى الذي اخترعه شارون نفسه قبل ثلاث سنوات من ذلك التاريخ، وقبل أن يتسلم الحكومة لاحقا.

وخلاصة ذلك الطرح الذي بلوره بعد فشل قمة كامب ديفد صيف العام 2000، هو أن التوصل إلى اتفاق مع الفلسطينيين يشمل قضايا ما يسمى الوضع النهائي سيكون مستحيلا، وهم لن يقبلوا بالأطروحات الإسرائيلية، والحل تبعا لذلك هو استدراجهم إلى اتفاق انتقالي لن يلبث أن يتحول إلى دائم «ربما مع تعديلات طفيفة» في ظل استحالة العودة إلى الوراء، بعد أن تكون الدولة قد اكتملت من الناحية العملية.

على خلفية برنامجه «الحل الانتقالي»، انسحب شارون من قطاع غزة الذي ينبغي أن ينضم إلى الحل الانتقالي «أوسلو كان اسمه الأول هو اتفاق غزة-أريحا»، وكان يريد نقل التجربة إلى الضفة الغربية بالتدريج «قبل أن يعاجله الموت الدماغي».

ولهذا الغرض اغتال شارون قادة حماس الكبار «الشيخ ياسين والرنتيسي»، ثم أتبعهم بياسر عرفات، وهيّأ الأجواء لنقل السلطة إلى أناس لن يكون لديهم مانع في المضي في هذا البرنامج ما داموا يرون الحفاظ على سلطة أوسلو، ويرفضون الكفاح المسلح، بل والانتفاضة الشعبية الشاملة أيضا.

من يعتقد أن مشروع «الحل الانتقالي» قد توقف بعد اغتيال ياسر عرفات فهو واهم، فقد كان ينضج بالتدريج بعد أن أصبح موضع إجماع في الساحة السياسية الإسرائيلية، وذلك عبر إعادة الوضع تدريجيا إلى ما كان عليه قبل انتفاضة الأقصى نهاية سبتمبر 2000.

كانت مسيرته تنضج بوضوح أمنيًا عبر مشروع دايتون و«الفلسطيني الجديد»، واقتصاديًا عبر مشروع بلير الذي شغل الناس بالمال والأعمال، وورّط كبار رموز السلطة في هذا المضمار حتى أصبح بعضهم ومن يرتبطون بهم يملكون عشرات الملايين، بعد أن كانوا مجرد موظفين حين رحل ياسر عرفات.

نعم، كان المشروع ينضج بالتدريج في السياق المشار إليه، مع وضع السلطة ومنظمة التحرير وفتح تحت إمرة تلك القيادة، إلى جانب توريط حماس في دخول الانتخابات ومن ثم حشرها في قطاع غزة، وتكريس حالة العداء بينها وبين حركة فتح، ودفع الأخيرة إلى حضن عباس بالكامل دون اعتراض على خطه السياسي.

اليوم، تبلغ مسيرة «الحل الانتقالي» نهاياتها، وهي توشك أن تعلن عن نفسها بشكل واضح، بدون أن يعني ذلك أنها ستنتهي أثناء شهر أو شهور قليلة، لاسيما أن قادة السلطة ما زالوا يصرخون ليل نهار بأنهم لن يقبلوا الحل المؤقت، وأنهم مصرون على حل نهائي، لكنهم لن يجدوا بدا مما ليس منه بد، في ظل ضغط أميركي كبير، وفي ظل مخاوف يشتركون فيها مع الأميركيين وقادة الاحتلال تتعلق بانتفاضة جديدة في الضفة الغربية يمكن أن تنسف -وأقله تهدد- كل ما «بنوه» أثناء السنوات العشر الماضية.

ولا ننسى أن مشروع الحصول على دولة بعضوية مراقب في الأمم المتحدة لم يكن سوى جزء لا يتجزأ من هذا المشروع الذي سينتهي دون شك بعضوية كاملة، والنتيجة هي أن دولة الجدار الأمني مستباحة السيادة ستغدو في حالة نزاع حدودي مع جارتها لا أكثر ولا أقل.

نستعيد ذلك كله بين يدي الجولات المتوالية لوزير الخارجية الأميركي جون كيري في المنطقة، وبين يدي مشروعه الأخير الذي يركز على البعد الأمني في الصراع، بدون أن يطرح أية أسئلة تتعلق بالقضايا الكبرى التي تعيق المفاوضات، وفي مقدمتها القدس التي أفشلت قمة كامب ديفد 2000، وليس من بينها قضية اللاجئين التي استسلم قادة السلطة لنسخها من مطالبهم، وإن واصلوا الحديث عنها بين حين وآخر.

يعلم كيري أن نتنياهو لن يعرض على عباس ما سبق أن عرضه باراك وكلينتون على السلطة في كامب ديفد، ما يجعل الحديث عن اتفاق نهائي عبثيا إلى حد كبير، في حين يعلم أن انفجار انتفاضة في الضفة الغربية لن يهدد الأمن الإسرائيلي وحسب، بل سينسف الكثير من الجهد الذي بذله وإدارته مع إيران، وربما في سوريا لاحقا.

والنتيجة أنه لا بد من الاتفاق المرحلي بأي ثمن، وأقله الحديث المتواصل عنه إلى حين نضجه تماما، وبالطبع حتى يستمر تسويق الوهم على الشعب الفلسطيني بأن هناك ما ينتظره في زمن ما.

من هنا بدأ كيري بطرح القضايا الأمنية، وتجاوز القضايا السياسية الكبرى، وهنا أيضا وجد نفسه في صدام مع مطالب إسرائيل، رغم مجاملته السافرة لها.

لكن النتيجة أن تمرير هذا الوضع على الطرفين لا يبدو مستحيلا، مع تغيير في التفاصيل التي لا تخرج عن تكريس الدولة المؤقتة في حدود الجدار مع بقاء السيطرة الإسرائيلية على الغور «والمعبر بالضرورة»، ووجود محطات إنذار مبكر في الضفة، وسيطرة على الأجواء أيضا.

في هذه الأثناء تحدث أوباما عن «اتفاق إطار» يتطرق إلى قضايا الوضع النهائي كقضايا مؤجلة، حتى يكون بوسع قيادة السلطة أن تقول للناس إنها لم تتنازل عن «الثوابت»، بينما هي تفعل ذلك دون أدنى شك، وهي في النهاية ستقبل بالمؤقت، لأنه لا بديل أمامها في حال الرفض غير الانتفاضة التي ترفضها بشكل حاسم.

وحين توقع السلطة مع الكيان الصهيوني والأردن على اتفاق مائي طويل المدى يربط بين البحر الأحمر والبحر الميت، فهذا يعني أنها تسحب من عقلها أي صدام مقبل مع الطرف الإسرائيلي.

وفي السياق، نقل عن وزير المياه في السلطة عبارة بالغة الأهمية تعكس هذا البعد، حين قال عن الاتفاق الثلاثي «أظهرنا أننا نستطيع العمل معا رغم مشاكلنا السياسية»، والنتيجة أنها مجرد مشاكل لا أكثر، والمشاكل تسوى بين الدول عبر الأطر التفاوضية، لاسيما أن الدولة المؤقتة لن تلبث أن تحصل على عضوية كاملة في الأمم المتحدة.

هنا تتبدى الخطورة الكبيرة التي تنطوي عليها المفاوضات القائمة حاليا برعاية أميركية، والتي تهدد مستقبل القضية برمتها، ما يفرض على شرفاء الساحة الفلسطينية أن يتوحدوا ضمن إطار جبهة تواجه هذا العبث، وتقلب الطاولة في وجهه، وأعني هنا الجميع في الداخل والخارج، الأمر الذي يمكن أن يستقطب لاحقا شرفاء في حركة فتح ممن يمكن أن يتمردوا على منطق القبيلة، ويخرجوا من أسر المناكفة والعداء لحركة حماس.

ما يجري بالغ الخطورة ويهدد بتصفية القضية برمتها، وإذا لم يتوحد جميع الشرفاء فلسطينيا، بل وعربيا، فإن ثمة أجواء في المنطقة تساعد على تمرير مشروع من هذا النوع، وهي أجواء لولاها لما كان بالإمكان توقيع الاتفاق المائي الثلاثي المشار إليه دون اعتراض من أحد، فضلا عن الانشغال بالحديث عن الأبعاد الأمنية، ونتنياهو يصرخ ليل نهار بأن القدس الموحدة هي عاصمة الدولة الإسرائيلية، بينما يتذكر الجميع وثائق التفاوض الشهير وما انطوت عليها من تنازلات في القضايا الحساسة لم تشبع شهية الصهاينة «المعتدلين»، فضلا عن أن تشبع شهية المتطرفين من أمثال نتنياهو وليبرمان.

بقي القول، إن الأمل معقود على الشعب الفلسطيني الأبي الذي عودنا على اجتراح المعجزات، ذلك أن تفجير انتفاضة شعبية تواجه العبث الجاري، ومن ضمن ذلك التهويد والاستيطان في الضفة والقدس، سيشكل المواجهة الكبرى والأكثر فعالية لمشروع تصفية القضية الذي يُطبخ حاليا.

عن «الجزيرة نت»

# «أمركة» إيران بالعصا وغصن الزيتون

**غسان الإمام**

كان بنيتو موسوليني زعيم إيطاليا الفاشية يهدد الديمقراطيات الغربية بخمسة ملايين حربة. ثم ظهر أنها من عيدان السباغيتي «معكرونا». واضطر حليفه هتلر إلى إنقاذه، عندما دحرت القوات الإيطالية التي غزت ألبانيا واليونان.

هل لموسوليني ضريح تذكاري في إيران؟ وإلا لماذا. ومن أين تنطلق هذه الصرخات الهستيرية لجنرالات الجيوش الميليشيوية، مهددة أمريكا، بأسلحة سرية فتاكة، تجعلها هباء منثورا؟

هل إيران دولة «حربجية» حقا؟ هُزمت إيران في الحرب العبثية مع عراق صدام. ونصح رفسنجاني الخميني بوقفها، بعدما استهلكت في ثماني سنوات جيلين من الإيرانيين والعرب العراقيين. وسبق للشاه الأمي رضا بهلوي أن استسلم بلا مقاومة، للقوات الروسية والبريطانية التي احتلت طهران، خلال الحرب العالمية الثانية، واقتسمت إيران، عقوبة له على حماسته للفاشية الهتلرية.

ليس سرا أن إيران الخميني اشترت أسلحة من إسرائيل «1985/ 1986»، في حربها مع العراق. ولم تخض حربا مع الدولة العبرية. إنما أغرت حزبها اللبناني بالتجربة. فقتل 1200 شيعي لبناني «2006». ومات مائة فلسطيني بصواريخ الحزب التي أطلقت، بطريقة عشوائية، على إسرائيل. وخرج رئيس الحزب من مخبئه، ليعلن أن النصر كان «إلهيا»!

أنشئ حزب الله كقوة دفاعية. غير أن إيران تستخدمه اليوم في سوريا، كقوة هجومية. الدفاع ليس كالهجوم. فعاد عدد كبير من المقاتلين محمولين بأكياس مغلقة. وقال حسن نصر الله إنه أرسلهم لإنقاذ السيدة زينب التي لم يمسّ أحد ضريحها بسوء، على مدى 1300 سنة. ثم ندم. فأعلن أنه يقتل السوريين، لينقذ الفلسطينيين. ثم طالب بحكومة لبنانية جديدة تدعم مجهوده الحربي. فرفضت الأحزاب والطوائف توزيره معها.

بات الحزب معزولا. وعاجزا. لا يملك عمقا استراتيجيا. ومع استفزازه السنة، وغزوه بيروت، نشأت تنظيمات سنية «جهادية» كالفطر هنا وهناك. ومع تدفق نحو مليون نازح سوري على لبنان، باتت السنة، للطرافة المأسوية، أغلبية طائفية تفوق الغالبية الشيعية. فمنع الحزب الدولة سرا من السماح للدول المانحة، ببناء أكواخ للنازحين، كي لا يتحولوا إلى لاجئين، كالفلسطينيين، مقيمين لأجل طويل.

تاريخيا، فارس حضارة هجومية. في المجوسية الزرادشتية «عبادة النار»، وصلت الجيوش الفارسية إلى اليمن. مصر. المشرق العربي. وحاولت غزو أوروبا. فلاقت هزيمة مريرة أمام الإسكندر المقدوني الذي اخترقها وصولا إلى الهند.

أعز الإسلام العرب. كان العرب المسلمون من الوعي، بحيث استعادوا العراق والشام من الهيمنة الفارسية والبيزنطية. لم يكن الإسلام دينا عنصريا. تأسلمت واستعربت الأقوام السامية «الموالي» في البلدين. وكان الانصهار مع عرب الجزيرة الفاتحين كاملا. وأنتج حضارة ثقافية رائعة لم تجد في انفتاحها العقلاني، ما يمنعها عن الترجمة عن اللغات الإغريقية. والفارسية. والهندية.

كان الإسلام العربي رحيما. ترك العرب الحرية للشعوب الأجنبية. لم يتأسلم الإسبان. وتأسلم الفرس. والكرد. والأتراك، لكن لم يستعربوا، على الرغم من اختراق اللغة العربية لغاتهم. وظلت اللغة والثقافة العربية مزدهرة، إلى أن سقطت السلطة السياسية من أيدي العرب.

كان موقف الفرس من العرب سلبيا. كان الفتح العربي لفارس صدمة نفسية هائلة للنفس الفارسية. وكان استشهاد آل البيت «علي ونجلاه الحسن والحسين» فرصة للفرس لشق الإسلام إلى مذهبين، بفروق واهية بينهما تلغي الحاجة إلى الصراع المذهبي. يقول المؤرخون إن القائد الفارسي الذي استعار اسما عربيا «الطاهر بن الحسين»، وفتح بغداد، وأعمل السيف في عربها، لم يكن أقل وحشية. وهمجية، من هولاكو.

الاستقلال في القرن العشرين كان فرصة تاريخية للعرب لتحقيق وحدة لم يعرفها تاريخهم. لكن الاستقلال تمسك بمصالح السيادة المحلية الضيقة. فضاعت الفرصة. ثم ما لبث أن حل تعب المادة بالنسيج الاجتماعي، نتيجة لعوامل كثيرة، في مقدمتها: هزيمة المشروع القومي. أرستقراطية النظام العربي. تسييس الدين. التكاثر البشري العشوائي. كل ذلك أدى إلى ضعف الثقافة. والتربية. واللغة. فبات هوان حياة الإنسان العربي سهلا على الرصاص. والاغتيال. والقتل الجماعي بالتفخيخ بالمتفجرات. باسم الدين. والطائفة. بلا رادع أخلاقي. وإنساني.

خرجت القمة الخليجية بلغة كويتية هادئة. ومصالحة لإيران. تأجل مشروع «الاتحاد» الذي قدمته القيادة السعودية إلى قمة أخرى. اعتذرت عُمان عن عدم قبول الاتحاد، انسجاما مع دورها في الوصل بين أميركا وإيران. وبقيت السياسة الإيرانية على حالها: ابتسامات شاكرة للخليج الذي أنقذت موانئه التجارية إيران من الركوع تماما أمام العقوبات الغربية. و«خط أحمر» رسمه رئيس «روحاني» أمام الثورة السورية.

على أية حال، لم تخرج القمة خالية الوفاض. فقد قدمت التنسيق العسكري، على ملف تحويل مجلس «التعاون»، إلى مجلس «اتحاد». العبرة بالتنفيذ. وإقامة الاستراتيجية الدفاعية الخليجية، على سلاح الطيران «السعودية ثاني أقوى دولة جوية في المنطقة». وسلاح الصواريخ. ثم الدبابات الألمانية الخفيفة الحركة على الرمال، وذلك في مواجهة الكثافة البشرية للقوات الإيرانية.

بالإضافة إلى التنسيق العسكري، جاء قرار إنشاء مركز للبحوث الاستراتيجية شديد الأهمية. نعم، فالسياسة والإعلام في الخليج بحاجة إلى معرفة أعمق بالتاريخ السياسي العربي الحاضر والغابر، لا سيما بعدما انتقل مركز الثقل السياسي والمادي العربي إلى الخليج، لتزويد الإعلاميين بالمعلومات، كي يأتي التعليق السياسي بعيدا عن التكرار، وأكثر ثراء ودقة في عرض التطورات والتحولات المتسارعة.

«العلمو نورن». باتت مراكز البحوث والدراسات الأميركية تعج بأنصار إسرائيل والباحثين الإيرانيين الأميركيين. هؤلاء الذين ورطوا إدارة بوش بالتضليل. وشجعوها على ضرب العرب بغزو العراق وتسليمه لإيران. هؤلاء يعصرون أدمغتهم للترويج إلى ما أسميه إجراء عملية «ماكياج» لمآلي إيران وحزب الله، وتقديمهم كحلفاء لأميركا وإسرائيل. كأنموذج لئيم، أشير إلى تعليق في «نيويورك تايمز» يوم الثلاثاء الماضي طافح بالمعلومات التاريخية غير الصحيحة. ومحاولة النيل من السعودية وأهمية النفط العربي.

هل يمكن الثقة بإيران؟ «أمركة» إيران هي اللغة الرائجة اليوم على المسرح السياسي الغربي. صناع القرار السياسي والتعليق الإعلامي في الغرب، يراهنون على انتقال إيران من دولة مارقة إلى دولة مؤدبة تتحرك في صميم العلاقات الدولية، بعد تحييدها وتجريدها من مسدسها النووي.

لماذا تعثرت مؤقتا المفاوضات بين إيران والغرب؟ الطرفان يكتمان الحقيقة. أميركا تستعجل استكمال وقف تخصيب اليورانيوم ومنعها من إنتاج البلوتونيوم. في حين انصرفت إيران إلى الإلحاح على الإفراج عن كنزها المالي «مائة مليار دولار» المجمد، بسبب العقوبات، في المصارف الغربية، كحصيلة عقود بيع النفط.

إيران بحاجة إلى تمويل أوسع وأسرع للعمليات العسكرية للقضاء على الثورة السورية، وتسديد ديون بشار لروسيا. ولتعويض «حزب الله» عن خسائره البشرية. وأخيرا إعادة تعويم الاقتصاد الإيراني. وتفادي غضب الإيرانيين الذين يرون ثرواتهم ومواردهم تتبدد على المشروع الإيراني الخارجي.

في مشروع «أمركة» إيران، تعتمد إدارة أوباما دبلوماسية مزدوجة: الكونغرس يلوح بعصا الردع لفرض مزيد من العقوبات. والبيت الأبيض ووزير الخارجية جون كيري يلوحان بغصن الزيتون، لإغراء الجمهور الإيراني الذي صوّت لترئيس روحاني، بالتمتع بلذائذ الحلف القديم مع أميركا، والمصالحة واستعادة العلاقة الشاهنشاهية مع إسرائيل.

ثمة مساومة طويلة ومعقدة، ليس لاستكمال تحييد إيران نوويا، وللإفراج عن كنزها المالي، وإنما أيضا على مصير سوريا ولبنان: هل تبقيان في عهدة إيران، على أن تستغني عن خدمات بشار الذي لا يمكن الظهور معه في الصورة، لارتفاع عدد ضحاياه؟ وكيف يمكن دق رأس نظامه مع رأس «الائتلاف» المعارض داخل حكومة وفاقية «مستحيلة»؟

جون كيري المكلف بالمساومة يقول إنه «ليس مازوشيا». بمعنى أنه في النهاية ليس مستعدا لحمل عدة قضايا شائكة وملتهبة بقبضة واحدة، ويمشي بها على حبل دبلوماسي في سيرك صاخب. بوتين الشهير بالمغالطة ينصب كمينا «لشركائه» الألداء الأميركيين في جنيف. هو أيضا يريد حصة في التسوية. يقول إنه أنقذ مجلس الأمن «عطله بالفيتو». باع أميركا «كراكيب» بشار الكيماوية. وأنقذ السلام من القنبلة النووية الإيرانية! وحمى إسرائيل! ثم يرسل وزيره لافروف إلى طهران، لقبض فاتورة الحساب.

عن «الشرق الأوسط» اللندنية